الفصل الثاني:

- بين الجاهلية والإسلام.
- نشأته وشخصيته.
- ثقافة عثمان.

obeikandl.com

بين الجاهلية والإسلام

نشأ عثمان بن عفان في أسرة أموية تنتمي إلى أمية جد أبيه، وعند أمية يكثر الخلاف على سلسلة النسب بين أسرته والنسابين، فلا تتفق الأقوال المتضاربة على قول حاسم.

يقول المقريزي في رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم: "وقد كانت المنافرة لا تزال بين بني هاشم وبني عبد شمس بحيث أنه يقال أن هاشمًا وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم وقد لصقت إصبع أحدهما بجبهة الآخر، فلما نزعت دمي المكان فقيل سيكون بينهما أو بين ولديهما دمٌ، فكان كذلك".

"ويقال أن عبد شمس وهاشمًا كانا يوم ولدا في بطن واحد كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض ففرق بين جباههما بالسيف فقال بعض العرب: ألا فرق ذلك بالدرهم؟ فإنه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم إلى الأبد".

وأمية هو في تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين، ولكن بعض النسابين يقول أنه ربيب عبد شمس، وأنه ابن جارية رومية وصلت إلى الحجاز مع ركب سفينة جنحت إلى الشاطئ، ويفسرون بذلك أبياتًا منسوبة إلى أبي طالب يقول فيها:

قديمًا أبوهم كان عبـدًا لجـدِّنا بني أمة شهلاء جاش بها البحرُ

ويفسِّرون به أيضًا قول الإمام عليّ لمعاوية في بعض كتبه "ليس المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق" وجاء في ابن هشام أن عقبة بن

ذكوان بن أمية صاح حين أمر النبي بقتله: "أأقتل من بين قريش؟". فقال عمر بن الخطاب: "حن قدح ليس منها" وهو مثل يضرب للقدح الدخيل في الميسر، وروى ابن هشام أيضًا أن النبي عليه السلام قال حينئذ: "إنما أنت يهودي من أهل صفورية". ويقال في تفسير الحديث أن الأمة التي ولدت أباه كانت ليهودي من أهل صفورية، ويقال غير ذلك مما يعسر الفصل فيه.

ولكنه من الراجح الذي ينتهي به التاريخ إلى دور التحقيق أن التبني وتدعيم العصبية به، معهودان في هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثيل في الأسر الجاهلية الكبيرة، ومما رواه الأصفهاني وابن أبي الحديد أن معاوية قال لدغفل النسابة: "أرأيت أمية؟". قال: "نعم". قال: "كيف رأيته؟". قال: "رأيته رجلاً قصيرًا ضريرًا يقوده عبده ذكوان". قال معاوية: "ذلك ابنه أبو عمرو". قال دغفل: "ذلك شيء تقولونه أنتم، أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده".

وفي التاريخ الثابت بعد الإسلام أن أبا سفيان استلحق زيادًا الذي كان يسمى بزيادة بن أبيه أو بزياد بن سمية، وكان معاوية يغضب على من ينكر هذا الاستلحاق، فقال يزيد بن مفرغ يخاطبه:

أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانِ
فأقسم أنَّ رحمك من زيادٍ كرحم الفيلِ من وَلَدِ الأتانِ

وروى البلاذري من أخبار هذا الاستلحاق أنَّ عثمان بن محمد ابن أبي سفيان ولي المدينة بعد عمرو بن سعيد، فعرض في خطبته بسلفه،

وكان هذا حاضرًا في المسجد فنهض مغضبًا وقال فيما قاله لعثمان حفيد أبي سفيان: "إنني لا يستنكر شبهي، ولا أدعى لغير أبي".

ويزيد المقريزي على ما تقدم من خبرة أن أمية "صنع في الجاهلية شيئًا لم يصنعه أحد من العرب: زوج ابنه أبا عمر امرأته في حياته".

قال المقريزي: "والمقتيون في الإسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم. وأما أن يتزوجها في حياته ويبني عليها وهو يراه فإن هذا لم يكن قط. وأمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه.

ثمَّ قال المقريزي: "وأبي معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين".

وندع ما جاء في أنساب الأشراف وفي شرح نهج البلاغة من سائر هذه الأخبار عن استلحاق الأبناء، فإن الحرص على تدعيم العصبية ظاهر في هذه الأسرة مما ثبت من أخبارها، فلا حاجة إلى الإسهاب فيه.

وكانت المنافرة شديدة بين أمية وهاشم إلى أيام الدعوة المحمدية، يحفظ لنا الرواة أخبارًا كثيرة منها قديمة وحديثة، فمن أحدثها قبل الدعوة الإسلامية أن حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافروا إلى حكم من بني عدي القرشيين هو نفيل جد الفاروق، فقال نفيل لحرب: "أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا، وأطول منك مذودًا:

أبوك معاهرٌ وأبوه عفٌّ وذاد الفيل عن بلد حرام

يشير إلى تعرض أمية للنساء، ومنهم امرأة من بني زهرة راودها فتصدى له بعض قومها وأوشكت أن تكون من جراء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش.

وأقدم من هذه المنافرة منافرة أخرى بين هاشم وأمية تكلف فيها أمية أن يصنع صنيع هاشم، وكان هاشم-واسمه عمرو-قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بإطعام المعوزين من أهل مكة وجيرتها عام المجاعة، فكان يهشم الثريد لهم وينحر الإبل ويتعهد الفقراء، وفيه يقول شاعرهم:

عَمْرُو الذي هَشَم الثريدَ لقومِهِ ورجالُ مكّةَ مُسْنِتون عِجافُ

فأراد أمية أن ينافسه في الشرف ومحبة الناس إياه فعجز عن هذه المنزلة، فدعاه إلى المنافرة كعادتهم، واحتكما إلى كاهن خزاعة بعسفان على خمسين ناقة تنحر بمكة وجلاء عشر سنين من جوار الحرم، فقال الكاهن سجعًا على أسلوب الكهان والمحكمين جميعًا يومئذ: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام المماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم إلى المآثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر".

وأبو همهمة الذي أشار إليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذي خرج مع أمية، وينتهي نسبه إلى فهر بن مالك. وكأنما أراد الكاهن بذكره أن يذكره بما في النسب الأول والآخر من سرٍّ هو به خبير.

قال الرواة: فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين.

ويكاد التنافس بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة، فشمل الفروسية ووسامة الذرية كما شمل الرئاسة ومفاخر السيادة.

تنافس أمية وعبد المطلب على سباق الخيل، وتراهنا على أن تحز ناصية المسبوق سنة ويغرم عددًا اختلفوا فيه من العبيد والإماء والإبل، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية، ودان أمية بسيادته عليه سنة. وينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة كلمة لعبد الله بن جعفر في محضر معاوية جبه بها يزيد وهو يفاخره فقال: "أتفاخرني بحرب الذي أجرناه، أم بأمية الذي ملكناه، أم بعبد شمي الذي كفلناه؟"

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب: "كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر" ورآهم عامر بن مالك فقال: "بهؤلاء تمنع مكة"، وغير هذه الصفة تقال في أبناء حرب فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتقدمين.

ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب، لأن الاختلاف بينهما أعمق غورًا من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلح عليه عرف الجاهلية: كان اختلافًا في الخلق والطبيعة، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقرب إلى الأخلاق المثالية الدينية، وبنو أمية أقرب إلى الأخلاق العملية الدنيوية. وقد يتردد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام، ففي حلف

الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه، وحلف الفضول هذا هو الذي قال عنه النبي عليه السلام: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول.. أما لو دعيت به اليوم لأجبت، وما أحب أن لي به حمر النعم وأني نقضته".

وخلاصة قصته أن رجلاً يمانيًا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها رجل فلواه بحقه وأبى أن يرد إليه بضاعته، فقام في الحجر أو في مكان على شرف وصاح يستغيث، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلا فهم ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه.

وقد أبي الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف، فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول: "لو أن رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول".

وإن طبيعتين يفصلهما هذا الفاصل من ذوات النفوس لا جرم تتنافران وإن ضمهما بلد واحد، وإنهما في البلد الواحد لأ خلق بالتنافر من المتباعدين.

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية تدخل في سيرة عثمان من مداخل شتى، وقلّ أن يمر بنا مبحث

في عمل من أعماله أو خلق من أخلاقه إلا كانت به عودة إلى تلك المنافرة.

فمنها نفهم أن فضل عثمان في إسلامه لا يدانيه فضل أحد من السابقين إلى الإسلام، إذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبي هذه الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة، وكلهم كان بينهم وبين الإسلام ما كان بين القديم عامة والجديد عامة، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم أو عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للهاشميين، وليست هذه العداوة في الجاهلية بالشيء الهين ولا بالعقبة المذللة. فقد رأينا رجلاً من بني عبد شمي كان يتمنى أن يشهد حلف الفضول فحماه أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببدعة لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها، وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفضول لا تنقض دينًا ولا تغير عبادة ولا تميز أحدًا من الداخلين فيها بشرف أو سيادة، وبين دعوة كالدعوة المحمدية تحطم كل صنم وتبدل كل عبادة وتثبت لبيت عبد المطلب شرفًا لا يسمو إليه شرف بين الناسب كافة، فضلاً عن قريش وأمة العرب بكل من تشتمل عليه.

وما تقدم من شواجر النزاع بين أمية وهاشم كاف للإبانة عن فضل عثمان في شبقه مع السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية. إلا أن هذا الذي تقدم لم يكن شيئًا إلى جانب الشر الذي قوبل به النبي في بيت عثمان نفسه وبيت عمومته وقرابته من جملة الأمويين.

فالحكم بن العاص -عم عثمان- كان يتصدَّى للنبيِّ ويشتمه ويمشي وراءه يحكيه في مشيته ويخلَج بأنفه وفمِه، فقيل إنه عليه السلام التفت إليه وهو بهذه الحالةِ فلزمَه ذلك الاختلاج، وقال فيه عبد الرحمن ابن حسان وهو يهجو مروان ابنه:

إن اللعين أباك فارم عِظامَهُ إن تَرْمِ تَرْمِ مخلجًا مجنونا

يضحي خميص البطن من عمل ويظلّ من عمل الخبيث بطينا

وقد لبث على دخلةِ نفسه بعد إسلامه عامَ الفتح خوفًا من القتل فكان يتطلَّع على النبي في داره فرآه مرَّة فقال: "من عذيري من هذا الوزغة!" ثمَّ أمر ألَّا يساكنه بالمدينة، فأخرج مع بنيه إلى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها عليه السلام.

ومنهم عقبة بن أبي معيط الذي كان يتربص بالنبي حتى يسجد في صلاته فيلقي على رأسه سلا الشاء أو يطأ على عنقه الشريفة كما قال النبي في يوم بدر: "**إنه وطئ على عنقي وأنا ساجد فما رفعت حتى ظننت أن عيني قد سقطتا**".. وكان أحد الأسرى الذين قتلوا ببدر لشدَّة ما ابتلي به المسلمون من أذاهم قبل الهجرة، وفي بيت عقبة هذا أقام عثمان زمنًا لأنَّه تزوَّج من أمِّه بعد موت أبيه في صباه.

وتصدَّى للنبي عليه السلام كثيرون غير هذين من قرابة عثمان وخاصَّة أهله، ولم يدخل في الإسلام أحد من بني أميَّة قبله مع هذه العداوة في أسرته كلِّها وفي خاصَّةِ قرابته منها، فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد السابقين إلى قبولِ الدعوة المحمدية.

ولما أسلم رضي الله عنه أخذه عمه الحكم فأوثقه رباطًا وعذبه وأقسم لا يخلينه أو يدع ما هو فيه. فأقسم لا يدعنه أبدًا، وصبر على العذاب حتى يئس منه عمه فأخلاه.

وروي في سبب إسلامه أنَّ أبا بكر شرح له قواعد الإسلام وهداية الدين الجديد وأنس منه خشوعًا وتفكيرًا فقال له: "ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل. ما هذه الأوثان التي تعبدها وقومك؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟". فراجع نفسه وقال: "بلى والله إنها لكذلك" فدعاة أبو بكر إلى لقاء النبي ولقيه فقال له عليه السلام: "يا عثمان! أجب الله إلى جنته". قال عثمان: "فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. ثمَّ لم ألبث أن تزوجت رقية".

ومن المتواتر أن عثمان كانت له خالة اسمها سعدى بنت كريز تتكهن وتتعبَّد، ونقل عنها أنها هنأته بإسلامه وزواجِه، فقالت:

هدى الله عثمان الصفي بقوله فأرشده والله يهدي إلى الحق
فتابع بالرأي السديد محمداً وكان بن أروى لا يصد عن الحق
وأنكحه المبعوث إحدى بناته فكان كبدر مازج الشمس في الأفق

وينقل عنها غير ذلك أنها كانت طرقت وتكَّهنت عند قومها فلما رأته بعد قيام النبي بالدعوة قالت:

أبشر وحييت ثلاثًا تترى أباك خيرٌ ووقيت شرًّا
أنكحت والله حصانًا زهرًا وأنت بكرٌ ولقيت بكرا

وافيتهـــا بنـــت عظـــيم قـــدرا بنـــت بنـــي قـــد أشـــاد ذكـــرا

قال عثمان: "فعجبت من كلامها وسألتها: يا خالة!... ما تقولين؟". قالت: "يا عثمان!.. لك الجمال ولك اللسان، هذا نبيٌّ معه البرهان، أرسله بحقِّه الديَّان، فاتبعه واهجر الأوثان". واستزادها قائلا: "يا خالة! ... إنك لتذكرين شيئًا ما وقع ذكره في بلدنا فأبينيه لي". قالت: "محمد بن عبد الله رسول من عند الله جاء بتنزيل الله يدعو إلى الله". ثم قالت: "مصباحه مصباح، ودينه فلاح، وأمره نجاح.. دانت له البطاح، ما ينفع الصياح، لو وقع الذباح، وسُلَّتِ الصفاح، ومدَّت الرماح".

ويقال إن عثمان إنما ذهب إلى أبي بكر بعدما سمعه من خالته فرآه أبو بكر مفكرًا فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدَّم من النصيحة والاستجابة على اتفقت به الروايات.

ونحن نسقط من حسابنا ما روي من كلام الكاهنة، لأنه ضعيف السند لا يبقى منه إلا أن خالة لعثمان كانت تتكهَّن وتتعبَّد، وأن مسألة الدين في بيته كانت شغلًا شاغلاً لمن يأخذه على العصبية والعناد أو يأخذه على العبادة والتقوى، فما نظن أن رجلاً في الثلاثين-وهي سنه عند إسلامه-كان يعصي آله جميعًا ويطيع شيخةً عقامًا لو لم يكن في ضميره باعث مطاع إلى الإيمان بالدين الجديد.

وفي وسعنا أن نتخيل غضب قومه الأقربين من إسلامه فقد كان كأشدِّ غضب لحق مسلمًا من قومه المقيمين على الجاهلية، ولكنه مع هذا لم يمنع أناسًا منهم أن يلوذوا به خوفًا على أنفسهم بعد هزيمتهم، ولم

يمنع أن يتشفع لهم عند النبي وصحبه ويسأله العفو عنهم، وكذلك نرى أن تاريخ أمية في الجاهلية يحضرنا عند تقدير فضل عثمان في إسلامه، ويحضرنا عند تقديره أعذاره وعلل أعماله التي أخذت عليه بعد ولايته الخلافة. فقد كان لتدعيم العصبية وتأليبها شأن قديم في تاريخ هذه الأسرة ألجأها إلى استلحاق الأبناء من الموالي وإلى تزويج البنين من زوجات آبائهم أو الموالي من زوجات أوليائهم.

ولا ندري على التحقيق بِمَ نعلِّلُ هذه العادة التي انفردوا بها أو كادوا، إلا أنه قد تعلل بأن القوم لم يكونوا من الخمول بحيث يسكنون إلى خمولهم، ولم يكونوا من العزة الراسخة بحيث يطمئنون إلى عزتهم، وأنهم-وإن لم يعقموا-لم تشتهر عنهم غزارة الذرية في الجاهلية ولا في الإسلام، وهذه سلسلة ولاية العهد أوشكت أن تنقطع في كل بيت من بيوتهم ولي الخلافة بعد قيام الدولة الأموية، وربما انقرض البيت في جيل أو جيلين وبقي معاصروه من غيرهم عدة أجيال.

وقد انتهت المفاخرة بعد الإسلام بين المسلمين من بني أمية وبين بني عبد المطلب، فما من أموي مسلم كان يتعالى إلى مطاولة آل النبي بالنسب من جانب آبائه عليه السلام خاصة، ولكنهم مع هذا-ولا استثناء لأصدقهم إسلامًا كعثمان وصحابة النبي-قد كانوا يودون لو سمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم وبنيه. وتقدم أن معاوية سأل دغفلًا النسابة عن أمية بعد سؤاله عن عبد المطلب، وابن أبي الحديد يروي مثل هذا عن عثمان في أيام خلافته وأنه رضي الله عنه تمنى رجلًا يحدِّثه عن الملوك وسير الماضين فذكروا له رجلاً بحضرموت، فكان مما

سأله عنه: "أرأيت عبد المطلب؟" قال: "نعم، رأيت رجلاً قعدًا أبيض طوالاً مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال أن فيها بركة، وإن فيه بركة". فعاد يسأله: "أفرأيت أمية؟". قال: "نعم. رأيت رجلاً آدم دميمًا قصيرًا أعمى يقال أنه نكد. وإن فيه نكدًا". قال عثمان: حسبك من شر سماعه، وصرف الرجل..

ولا ينبغي أن ينسى العذر حيث يذكر الفضل للرجل من سوابق آله وذويه.

obeikandl.com

نشأته وشخصيته

ترجمة عثمان ترجمة سويَّة، لا نستغرب من لاحقِها بعد الإسلام شيئًا مما نعلَمُه عن سابق سيرته قبل إسلامِه، وإذا فاجأنا بالغرابة لأوَّل وهلةٍ فإنَّما نستغربه من أثر المفاجأة، ثم نعود إلى دواعيه فإذا هو مطرد لا غرابة فيه.

نشأ في نعمةٍ وعيش خفيض، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجار، لست سنوات مضت من عام الفيل، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف العيش قط في صباه أو طفولته.

وهو ابن عفَّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد منا، كان أبوه تاجرًا واسع التجارة، وكان يحمل قوافله إلى الشام على دأب الأكثرين من تجار بني أمية، وفي إحدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة، وترك ابنه بين الصبا والشباب.

وإذا صح ما جاء في أنساب الأشراف للبلاذري فقد كان عفان يعمل في حياكة الثياب "عفان أول حائك لثيابكم". ولكننا نستبعد جدًّا أن يجمع الثروة من حياكة الثياب بيديه، ومن الراجح إذن أنه كان يدير مصنعًا من مصانعها، أو أنَّه عمل بها في صباه ثمَّ تحوَّل عنها إلى التجارة.

وأمُّ عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي عليه السلام، وقد سبق أن أختها كانت تتكهن وتنقطع للكهانة، ففي وراثته من جانب أمه جنوح إلى طبيعة التدين التي اشتهر بها عبد المطلب وآباؤه وبنوه.

ويروى كما جاء في ابن الأثير أن عقبة بن معيط شكاه إلى أمه- وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان- فقال لها أن ابنك قد صار ينصر محمدًا، فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت: "ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد".

وقد كان مألوفًا في الجاهلية أن تتزوج المرأة بعد تطليقها من زوجها أو بعد وفاته، ولكن هذه العادة المألوفة لا تمنع أن ينقبض لها الابن وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه، فيلازمه منها بعض الخجل ولا يرتاح إليها بأية حال.

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أنَّ "مشكلة الأب" قد تمكنت من طويَّة الصبي فكان لها فعلها في توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها، فضاعفت ما في وراثته الأموية من الإيواء إلى ذوي قرباه، وهيأت نفسه للنفور من الوضع القائم في البيئة، فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة في نطاقها الأعمِّ الأوسع، وهو نطاق الشعائر الجاهلية.

ذلك أنَّه نشأ وهو يحس أن رب البيت الذي نشأ فيع غاصب ينتزع مكان أبيه، فتمكَّنت من نفسه الريبة في الأوضاع القائمة، ولم يحتملها إلا على مضض الكاره وترقب المتربص، وبخاصة حين تأتي من ناحية الأم التي تتمثل لابنها في هذه الحالة كأنها مغلوبة على أمرها منتزعة ممكن هو أحق بها.

وقد أسلفنا أننا لا نعول كثيرًا على الرواية التي تعود بإسلام عثمان إلى نصيحة خالته الكاهنة، فليس في كلامها مقنع للفكر يحول رجلاً في

الثلاثين عن دينه وتراث بيته، ولكنها على هذا تدل على داعية من الشعور لا نهملها ولا نستبعد مكانها من السريرة الباطنة، ويعزِّزها أن أسرةَ أمِّه كانت لا تخلو من عطف قويٍّ نحو صاحب الدعوةِ إلى الدين الجديد، عطف يبدو من قول أمه: "أموالنا وأنفسنا دون محمَّد".. وهي كلمة لا ينبغي أن ننساها في مواطن كثيرة من سيرة ابنها رضوان الله عليه.

ونقرأ وصف عثمان على ألسنة معاصريه فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم، وهما الجمال والحياء.

كان رَبْعَةً لا بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، مشرف الأنف، بوجنتيه نكتات من آثار الجدري، رقيق البشرة، أسمر اللون، كثير الشعر، له جمة أسفل أذنيه، وبه صلع مع طول في لحيته وغزارة في عارضيه.

وكان خفيف الجسم ولكنه لم يكن بضعيفه ولا معروقة، بل كان ضخم الكراديس بعيدَ ما بين المنكبين.

أما خلائقه فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح حلو الشمائل، محببًا إلى عارفيه، ومن ذاك أن نساء قريش كن يرقصن أطفالهم فيقلن:

أحبك والرحمن ** حب قريش عثمان

وكان يوتد أسنانه بالذهب، ويخضب لحيته، وربما تركها بغير خضاب.

وفي كتاب "الرياض النضرة" يروي المحبُّ الطبري عن عمرو بن عثمان أن عثمان بن عفان قال: "كنت رجلاً مستهترًا بالنساء، وإني ذات ليلة بفناء الكعبة في رهط من قريش إذ أتينا فقيل لنا أن محمَّدًا قد أنكح عتبة بن أبي لهب رقيَّة، وكانت رقية ذات جمال رائع. قال عثمان: فدخلتني الحسرةُ لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك، فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلي فأصبت خالة لي قاعدةً وهي سعدة بنت كريز، وكانت قد طرقت وتكهَّنت عند قومها فلما رأتني قالت: أبشر وحييت ثلاثًا تترى.. إلى آخر الأبيات، وروى ما تقدم من حديثها في غير هذا الفصل إلى قوله: "وكان لي مجلس عند أبي بكر فأتيته فأصبته في مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه فرآني مفكرًا فسألني عن أمري-وكان رجلاً متأنيًا- فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: "ويحك يا عثمان! إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل". ثمَّ قال: "فما كان أسرع من أن مرَّ رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوبًا فلما رآه أبو بكر قام فسارَّه في أذنه بشيء فجاء رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقعد ثمَّ أقبل عليّ فقال: "يا عثمان! أجب الله إلى جنَّته فإني رسول الله إليك وإلى خلقِهِ". قال: "فوالله ما تمالَكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله".

وتتكرَّر قصَّة كهذه في كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني، وهي قصة يلاحظ عليها أن زواج السيدة رقية من عتبة بن أبي لهب قد

كان قبل البعثة النبوية، فلما بعث النبي قال أبو لهب لابنه: "رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق له ابنته، ففارقها ولم يكن دخل بها".

فلا يبقى من هذه القصة ما يستبقى للتعريف بخلائق عثمان إلا قوله عن نفسه أنه كان في الجاهلية مستهترًا بالنساء، ولو لم يرد حديث هذه القصة في رواية من الروايات لما علمنا قط أنه كان كذلك في الجاهلية، لأن أحدًا من معاصريه في الجاهلية لم يشهده على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء، فإنهم كانوا يبيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن، وإنما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وحيائه، وبقدرته على المتعة والتعفف عما يشينه منها، وبالخلق الذي لازمه طول الحياة، وهو خلق ربيب النعمة الكريم.

روى عمرو بن أمية الضمري قال: "إني كنت أتعشى مع عثمان خزيرًا من طبخ من أجود ما رأيت، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن، فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟ قلت: هذا أطيب ما أكلت قط. فقال: يرحم الله ابن الخطاب. أكلت معه هذه الخزيرة قط؟ قلت: نعم، فكادت اللقمة تفرث بين يدي حين أهوي بها إلى فمي وليس فيها لحم، وكان أدمها لسمن ولا لبن فيها. فقال عثمان: صدقت! إنَّ عمر رضي الله عنه أتعب والله من تبع أثره وإنَّه كان يطلب بثنيه-أي منعه- عن هذه الأمور ظلفًا - أي غلظًا في المعيشة. ثمَّ قال: أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي، وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالًا وأجدَّهم في التجارة، ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه

وقد بلغت سنًّا، فأحبُّ الطعام إليَّ ألينه، ولا أعلم لأحدٍ عليَّ في ذلك تبعة".

ودخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئًا من فضة ومضى به، فبكى زياد.. قال عثمان "بما يبكيك؟". قال: "أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهمًا، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام، وإن ابنك هذا فأخذ ما أخذ، فلم أر أحدًا قال له شيئًا". قال عثمان: "إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله، وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله. ولن تلقى مثل عمر، لن تلقى مثل عمر..".

وقد سمع غير مرة يقول: "يرحم الله عمر، من ذا يطيق ما كان يطيقه"!

وصفوة القول في خلائق عثمان أنه كان إلى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه إلى صفات البأس والصرامة، وأن نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه إلى شيخوخته، وفي غير تبعة عليه كما قال.

اختصم يومًا هو وأبو عبيدة بن الجراح فقال أبو عبيدة: "أنا أفضل منك بثلاث"، فسأله عثمان: "وما هن؟". قال: "الأولى أني كنت يوم البيعة حاضرًا وأنت غائب، والثانية شهدت بدرًا ولم تشهده، والثالثة كنت ممكن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت"، فلم يغضب عثمان ولكنه قال له: "صدقت". ثم أجابه معتذرًا فقال: "أما يوم البيعة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني في حاجة ومد يده عني وقال: هذه يد عثمان بن عفان، وكانت يده الشريفة خيرًا من يدي. وأما يوم بدر فإن

رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفني على المدينة ولم يمكني مخالفته، وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها، وأما انهزامي يوم أحد، فإن الله عفا عني وأضاف فعلي إلى الشيطان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

والحقُّ أنَّ تخلُّف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيارٍ منه، ولم يكن فيه إحجام عن خطر مخوف، بل تخلف في اليومين طوعًا لأمر النبيِّ عليه السلام، أمَّا يوم "أحد" فقد انهزم معه كثيرون من شجعان الصحابة، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البغتة التي يكاد النكوص فيها أن يكون دفعة آلية، ثم يثبت الجأش بعد الصدمة الأولى، كما حدث من أكثر المنهزمين في ذلك اليوم العصيب.

بيدَ أنَّ المعارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفًا من تلك المواقف النادرة التي تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء، فإن كان فيها غير متخلف ولا محجم فليست هي بفخره الأول وفضيلته العليا، إنما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوي الثراء، ولاسيما ذوي الثراء من بني أمية الذين ضنوا بأموالهم في الجاهلية والإسلام إلا لمطمع أو مصلحة، وهذه هي آية العقيدة في مناقب عثمان.

لقد أشربت النفوس من العقيدة الجديدة غيرة لا عهد لها بمثلها في التنافس بين أكفائها: غيرة في العقيدة، وغير لها، وغيرة عليها،

فجمعت من معاني الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدها عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحي بينهم بالعرض الزائل، إذ كانت تجمع من معاني الغيرة الشريفة غيرة الحماسة للعقيدة، وغيرة التنافس عليها، وغيرة الصدق في منافستها، وأشرف ما في هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تغري أحدًا بغمط حق لأحد، أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه في قرارة ضميره، لأنها لم تكن غيرة العرف الظاهر قصاراها الوجاهة عند الناس، بل كانت الوجاهة عند الله قصاراها ومبدأها ومنتهاها، فلا يدعيها مدع بالباطل، ولا يأمن إذا ادعاها بالباطل أن تذهب جميعًا، فلا تبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية. ومن ثم كانت غيرة بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وادّعاء.

ومضى الناس يتنافسون، ويؤمرون أن يتنافسوا في مثل هذا الفضل، فهم فيه متنافسون مجدون. وقد رأينا كيف كان أناس في رجاحة أبي عبيدة وعثمان يتعارفون على هذا التنافس الذي لا يخجل فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه. فلا ينقم مسبوق على سابق، ولكنه يغبطه ويستحث عزائمه على سبقه ما استطاع.

وهكذا نظر عثمان إلى أكفائه، فوجد انه لم يسبقهم في ميادين الجهاد بالسيف، فآلى على نفسه ليسبقنهم في ميادين الجود والسخاء، وثابر على ذلك من أول أيامه في الإسلام إلى ختام أيامه في الحياة، فهاجر إلى الحبشة وهو يعلم أن ماله كله عرضة للضياع من جرّاء هذه الهجرة، فلم يبال ما بقي منه وما ضاع، وتقدم في كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو نقص في السلاح والعتاد، فبذل من المعونة والعطاء، ما لم

يبذله أحد من أمثاله في ثرائه، وما لم يبذله الذين هم أقدر منه على معونة أو عطاء، ولم يكن على أية حال بأغنى الأغنياء.

وكانت له سماحة، محببة حيث يجود ويتكلم بكلام التجار في مساوماتهم وهو على غاية الجود.

قال ابن عباس: "قحط الناس في زمن أبي بكر، فقال أبو بكر: لا تمسون حتى يفرج الله عنكم، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال: لقد قامت لعثمان ألف راحلة برًا وطعامًا، فغد التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برًا وطعامًا. بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة، فقال لهم عثمان: ادخلوا! فدخلوا فإذا ألف وقر قد صب في الدار، فقال لهم: كم تربحوني على شرائي من الشام؟ قالوا: العشرة اثني عشر. قال: قد زاودني. قالوا: العشرة أربعة عشر. قال: قد زاودني قالوا: العشرة خمسة عشر. قال: قد زاودني.. قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زاودني بكل درهم عشرة. هل عندكم زيادة؟ قالوا: لا. قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة".

ويشير عثمان هنا-كما هو ظاهر-إلى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله. ولن تعدم في هذا المقام ابتسامة سخف على فم متحذلق يقول: أما أعطى عطاءه وهو ينتظر الجزاء في الآخرة؟ فلقد آمن بالآخرة ألوف من ذوي الأموال التي لا تفنى، وهم لا يبضون بدرهم يوقنون من جزائه ما أيقنه عثمان.

وكان يدخل عرف الإحسان في صفقات التجارة، وهي تلك المعاملة التي اصطلح الناس قديمًا على أنها شيء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل القرابة، وممن يعبرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون عن معنى قديم تفاهم عليه المتعاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة، فقيل من أخباره في هذه الخصلة أنه ابتاع حائطًا -أي بستانًا- من رجل، فساومه حتى قام على عثمان، فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف فقال: سمعت رسول يقول: إن الله عزّ وجل أدخل الجنة رجلاً كان سمحًا بائعًا ومبتاعًا، وقابضًا ومقبضًا، ثم زاد البائع العشرة آلاف.

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أنذر في أبناء النعمة من خصال الكرم والإحسان، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله، ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيلائه وتعاليه على أنداده ونظرائه، فضلاً عمن يعلوهم بالبساطة والجاه، وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاة له أنه "كان لا يوقظ أحدًا من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه".

وروى الحسن أنه "رآه نائمًا في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس إليه، ثم يجئ الرجل فيجلس إليه، كأنه أحدهم".

وربما أحرج كما يخرج أصحاب الحياء حين يجترئ على حيائهم من هو أولى بتوقيره، فيبدر منه بعض ما يسوء مخاطبه، ثم لا يلبث أن يندم على بادرته ويتوب إلى الله، ومن قبيل ذلك غضبه على عمرو بن العاص حين واجهه بالزجر وهو يخطب الناس، فثارت ثورته أن يكون هو من

يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من إغراء بالفتنة عليه. قال عمرو: يا عثمان إنك قد ركبت بالناس بالنهابير وركبوها معك، فتب إلى الله -عزَّ وجلَّ- وليتوبوا.. فالتفت إليه مغضبًا وأجاب قائلا: وأنت هناك يا ابن النابغة؟ ثمَّ لم يلبث أن رفع يده وقال: أتوب إلى الله تعالى. ثمَّ كرَّرها فقال: اللهم إني أول تائب إليك.

فهذه شخصية سمحة. تساندت فيها مناقب السماحة، وأوشكت أن تستوفيها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الأعلام بين الجاهلي والإسلام: كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات. فهل يقال على هذا إنها شخصية سمحة وكفى؟ هل يقال إنها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة، أو كان حظها من هذه الصفات ضئيلًا لا يلتفت إليه؟ هل يقال إنها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردَّد فيها؟

من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلَّى في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله، وعلى رأسهم ابن عمه مروان ابن الحكم، فإن السهولة هنا توحي إلى المؤرخ أن يختار سبيلها، ويعفي نفسه من النظر إلى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض، من حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل الذلول.

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع بها طبع ضعيف، وصعب على من ينظر في أعماله جميعًا ولا يكتفي منها بأعماله التي يبدو عليها الضعف والتردد، ولم يكن عهد

من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ومناعة خلق وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول إسلامه إلى ختام حياته. فقد كان إسلامه تحديًا قويًا لخاصة أهله، ثبت عليه مع بقاء العلية من قومه بين عدو للإسلام أو مسالم له على دخل وسوء نية، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع أيامه، ومنها هزيمة الجيوش، وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية، وانقضاض الروم والخزر على أطراف الدولة الإسلامية الحديثة، وبعض مواقفه في تلك الأيام لا يمكن الرجوع به إلى رأي مروان بن الحكم، كوصاياه في إعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير إكراه على أحد من المجندين، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعدوه به جهرة ورددوه على مسمعه ليل نهار.

كلَّا لا يقول القائل عن رجل كهذا أنه ضعيف، ثم يستريح إلى قولته، إلا أن يبتغي الراحة ولا يبتغي سواها.

ولكننا نحسب أن مكان عثمان من القوة والعزيمة هو المكان الذي يحتاج إلى التوضيح، ولا يتضح لأول نظرة في سيرته وحوادث عصره، فليس هو بالمكان الذي يتراءى على القرب والبعد كأنه العلم الغني عن التوضيح.

من الناس من يقتحم طريقة ولا ينتظر من يدله أو يدفعه، بل لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقلّ من يدلونه

عليه، ومن شأنه أن يحسم تردد المترددين واعتراض المعترضين، فلا يلبث أن يقودهم معتزمًا فينقادوا له معتزمين.

ليس عثمان من هؤلاء.

ومن الناس من لا يعرف العزم تابعًا أو متبوعًا، ولا يثبت عليه إذا عرفه إلا ريثما يدفعه الخطر عنه، وقد ينثني عن عزمه بغير خطر لأنه من الوهن والعي بحيث لا يقوى على الثبات.

وليس عثمان من هؤلاء.

فليس هو مقتحمًا، ولا هو منقادًا عاجزًا عن العزم والثبات ولكنه وسط بين الاقتحام والانقياد لغيره في جميع الأحوال.

إنه ينقاد ويسوّغ انقياده لنفسه بمسوغ ترضاه، ولابد له من المسوغ المرضي في جميع الأحوال.

هؤلاء أيضًا يختلفون في مسوغ الانقياد للآخرين، فمنهم من ينقاد لمن هم أكبر منه ويأبى الانقياد لمن هم مثله أو دونه في المنزلة، ومنهم على نقيض ذلك من ينقاد لمن هم أنداده أو ينقاد لمن هم دونه، ويأبى الانقياد للنظراء والرؤساء.

ومسوِّغ الأولين الذين ينقادون لمن هم أكبر منهم أن الانقياد للأكبر طبيعة في كل علاقة بين رئيس ومرؤوس، ويدين بهذا المسوغ من لا حقّ له في الرئاسة، أو من لا مطمع له فيها على الأقل إلى حين، فقد يكون صغيرًا يرجو أن يكبر، أو خاملاً يرجو أن يعرف، أو مبتدئًا يرجو أن ينتهي إلى العظمة كما انتهى إليها من يعظمهم من الرؤساء.

أمَّا مسوغ الآخرين الذين ينقادون لمن هم أنداد لهم أو من هم دونهم، فهو أنهم أمنوا أن ينسب انقيادهم إلى ذلَّةٍ أو خوفٍ، وبخاصَّةٍ حين يكون المنقاد معروف الوجاهة والرئاسة، مساويًا لمن يدلُّه ويشير عليه، أو راجحًا عليه بالمكانة والسلطان.

وكذلك كان عثمان في اهتدائه إلى الإسلام بنصيحة أبي بكر الصديق. فقد كان عثمان أجمع لأسباب الوجاهة من أبي بكر في عرف عصره: كان من أمية وأبو بكر من تيم، وكان أغنى منه وأقدر على مخالفته، وكان أبو بكر إلى جانب هذا وذاك يدعوه إلى الإيمان برسول يتبعانه معًا فيقبل إن شاء، ويأبى إن شاء، ولا سلطان له عليه.

وكذلك كان عثمان في إصغائه لمراون بن الحكم حيث أصغى إليه، فقد كان مروان كاتبه وتابعه، وكان إصغاؤه له لغير خوف أو مذلةٍ، وعلمًا منه بأنه محسوب عليه.

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضًا لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأتى بغيره تقدير الحقيقة الملتبسة، فمن الناس من يأبى الانقياد للأنداد والرؤساء حسدًا ونكدًا، ومن يأبى الانقياد للأتباع والأعوان تيهًا وتجبرًا وذهابًا مع شهوة الترفع والاستعلاء، فهؤلاء كأولئك لا يعرفون السماحة ولا يوصفون بها، ولو لم يكن عثمان سمحًا مبرًا من الحسد والنكد ومن شهوة الترفع والاستعلاء، لما أصغى إلى ند ولا إلى تابع، ولا سوغ الإصغاء إليهما بمسوغ من المسوغات ترضاه نفسه وتطمئن إليه.

من أشدِّ ما يروى استدلالًا على ضعفِهِ وانقياده لرأي مروان بن الحكم قصَّة رواها ابن عبَّاس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه. قال:

"ما سمعت من أبي شيئًا قط في أمر عثمان يلومه أو يعذره، وما سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على ما لا يوافقه، فإنا عنده ليلة ونحن نتعشى إذ قيل: أمير المؤمنين بالباب. فقال: ائذنوا له، فدخل فأوسع له على فراشه وأصاب من العشاء معه، فلما رفع قام من كان هناك وثبت أنا، فمحمد عثمان الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا خال فإني قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك علي، سبني وشهر أمري وقطع رحمي وطعن في ديني، وأني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب، إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب إليكم رحمًا منه، وما لمت أحدًا منكم إلا عليًا، ولقد دعيت أن أبسط يدي عليه فتركته لله والرحم، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه.

قال: "فمحمد العباس الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا ابن أختي، فإن كنت لا تحمد عليًا لنفسك فإني لأحمدك لعلي، وما عليّ وحده قال فيك بل غيره، فلو أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس.

قال عثمان: "فذلك إليك يا خال، وأنت بيني وبينهم".

قال: "فأذكر لهم ذلك عنك؟"

قال: "نعم" وانصرف.

"فما لبثنا أن قيل: هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب فقال: أئذنوا له. فدخل فلم يجلس وقال: لا تعجل يا خال حتى أوذنك".

"فنظرنا فإذا مروان بن الحكم جالسًا بالباب ينتظره حتى خرج فهو الذي ثناه عن رأيه. فأقبل عليّ أبي وقال: يا بني! ما إلى هذا-يعني عثمان-من أمره شيء".

فإذا أخذت هذه القصة على عجل فعثمان قد كان أداة لمروان يذهب به ويجيء كما يشاء، ويمضيه على رأي أو يثنيه عنه على هواه.

ولكننا إذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل: من غير مروان كان يصنع بعثمان هذا الصنيع؟ فإن الرجل إذا كان هين المقادة إلى هذا الحد هان على كل موسوس له أن يقوده، ولاسيما أقربهم إليه وألزمهم له من حرمة ومساكنيه في داره. وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع في بيته إلى من يوغر صدره على مروان فلا يستجيب لتوغيره، ومنهم نائلة بنت الفرافصة زوجته، وقد كان للزوجات أثر في قصور ذوي السلطان ممن عرفوا بالقوة والسطوة لم ينقطع في عصر من العصور.

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها على مقربة منها، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان، وإن لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم أو عند ناقديه من معاصريه.

ونحن على يقين أننا اليوم نتردد في الجواب إذا سئلنا: "من غير مروان بن الحكم كان خليقًا أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذي يعمل له كأنه يعمل لنفسه في سره وجهره".

إننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لمثل هذا العمل، فمن منهم يتولاه إذا استغنى عن مروان؟

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة في عصره، ولكن الذين هم أفضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطه، ولا يطالبهم عثمان بما يطالب به مروان من خدمته وولائه.

لقد ذهب عثمان إلى العباس يشكو عليًا ويكاد يعم بالشكوى بني عبد المطلب، لأنه يحسبهم ذوي حق غلبوا عليه، فإذا خامرته هذه الشكوى صوابًا أو خطأ، وخامرته في أناس كبني عبد المطلب على مثل ذلك الصواب أو ذلك الخطأ، فهو لا يتخذهم وزراء كتبة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن إليه، ولعله لو لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملاً كعمل كاتبة ووزيره فإنهم في مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به إلى جواره.

ولا نقول إنَّ عثمان لم يكن يستمع لمروان، ولا أنه كان يستمع للصواب من رأيه ويعرض عن الخطأ منه، ولكننا نريد أن نقول أن ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوي، وأنه اختيار له سببه الذي يوضع في ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون في مكانه.

والسؤال الواجب على أية حال في كل مقام كهذا المقام هو: "ماذا كان أجدر وأجدى من هذا؟" فإن كان الجواب قاطعًا فقد أمكن القطع بالخطأ، وإن كان الجواب يحتمل رأيًا هنا ورأيًا هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتمًا على الضعف والاستسلام.

وإتباع عثمان لمشورة مروان غيره، لم يكن قط ذلك الإتباع الذي يعاب جملة أو يستحسن جملة، ولم يكن طاعة المستسلم الذي لا يدري فيم يستسلم، ولكنه أشد ما يكون من قبيل الحيرة التي يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما إذا ضل صاحبه، ومن حار معك كما تحار أقرب إليك ممكن يهتدي وهو في طريق وأنت في طريق.

ونعود فنقول إن شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة. وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية، ويتمه في صباه، ونشأته في بيت يتولاه غير أبيه، وانتماءه من جانب الأمومة إلى بيت عبد المطلب، وعلينا أن نشير إلى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر في جميع الحالات، ولكنه يورد لأنه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين.

ذلك السبب هو إصابته بالجدري في شبابه. وعند بعض النفسانيين أن الجدري يعقب أثرًا في بنية المصاب به إذا أهمل علاجه- بعد سن الطفولة خاصة- وليس إهمال علاجه يؤمئذ بالأمر البعيد.

أما أثر العقيدة فمن الواجب ونحن نتعرف معادن الشخصية الإنسانية أن تثبت من معاييره في تقويم الأخلاق والتفرقة بين فاضلها ومفضولها، ويجب هذا التثبت خاصة في الزمن الذي يكثر فيه الخلط بين قيمة الفضيلة وبين التعريف بأسبابها، فيعذر بعض المقصرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعة وسخاء، ويقولون أننا كنا خلقاء أن نقدم مثل إقدامهم، ونسخو مثل سخائهم، ونجود بالروح والمال مثل

جودهم، لو كنا ننتظر الجزاء في اليوم الآخر أضعافًا مضاعفة من النعيم والسعادة.

وتلك في الواقع خديعة الطبع اللئيم، وإنهم ليزعمون أنهم يشجعون ويجودون لو آمنوا بالجزاء بعد الموت، والواقع أنهم واهمون أو مغالطون، وإن لهم أشباهًا صدقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح، ولا تركوا ما هو أقبح من الجبن والشح وهو السلب والغضب والعدوان على النفس والمال.

قلنا في كتابنا أبي الشهداء: "كذلك يقول من يقول إن الأريحية التي سمت إليها طبائع أنصار الحسين إنما هي أريحية الإيمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم، فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعًا أو كرهًا في خدمة نوعه، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين؟ إنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى، ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت، ويقرعون بها وساوس التعلق بالعيش، والخنوع للمتعة القريبة، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعًا بجنات النعيم على نحو واحد، ومضى الناس على سنة واحدة في

الأريحية والفداء. ومرجع الفرق إذن في آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين".

وهذا الفرق بين الطبائع هو الذي نرجع إليه في رجل يمتاز بالشجاعة البالغة، ورجل يمتاز بالسماحة البالغة، ولا يمتازان بمزية واحدة، وكلاهما يؤمن بالثواب والعقاب.

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فرقتين من المسلمين تحارب كلتاهما في صف، وكلهم مصدقون بجزاء السماء واطلاع علام الغيوب بما يطوونه في الخفاء.

فالعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تغض من قيمتها، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة في معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها في مبعثها هذا، أو حركتها بعد سكون، أو خلقتها خلقًا من حيث لم تكن، فقد كان مع عثمان أناس من منتبه لم يعتقدوا كما اعتقد، ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب من عوج العقول وعمى البصائر وأثره الجهالة، وكل أولئك محسوب معدود في معايير الأخلاق.

ونعمم هذا القول في تقويم الفضائل والمواهب، فنفرق بين التقويم والتقدير، وبين التعليل والتفسير، فليست كل فضيلة علَّلناها أو فسَّرناها شيئًا قد أبطلنا قيمته وقدره، وليس قولنا أن هذه الروضة تنبت الرياحين والثمرات مبطلاً ما بينها وبين الفلاة المجدبة من الفرق والاختلاف. وليس قولنا إن هذا الإنسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من وراثته أو من تعليمه أو من اعتقاده ذاهبًا بفضل الشجاعة

مسويًا بينه وبين الجبان، أو بينه وبين الشجاع الذي هو دونه في شجاعته وإقدامه.

فالأسباب تثبت الفضائل والمواهب ولا تنفيها، وهي من أجل هذا جديرة بالإثبات وجديرة بالطلب وجديرة بالثناء، وأن من تعرف أسباب حسنه لحسن وأن من تعرف أسباب قبحه لقبيح، فلن يصبح الحسن قبيحًا لأنه معروف السبب، ولن يصبح القبيح حسنًا لأنه معروف السبب، وإن قل العجب مع عرفان السبب كما قيل، فقد يذهب العجب ولا يذهب الإعجاب.

والشاعر قد بلغ غاية الإعجاب بيحيى حفيد على بن أبي طالب حين قال:

كدأب عليّ في المواطن كلها أبي حسن والعرق من حيث يخرج
وأين له من ذاك لا أين! إنه إليه بعرقيه الزكيين محرجُ

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير، وإبطال للعجب هو غاية الإعجاب، وإنما يتجنى على الفضائل الإنسانية بتفسير أسبابها من يتمحَّل للنوع الإنساني كأنه يتمحَّل لعدو لا يرضيه يوصف بخير إلا أن يتعلل لمعابته بعلَّة، ويبطل العجب منه والإعجاب به سواء.

ثقافة عثمان

نعني في تراجم عظماء الصدر الأول من الإسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادر هذه الثقافة من معلومات زمنهم، ونرى أنها من العناصر التي لا غنى عنها في التعريف بمنازلهم وكفاياتهم، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير، ولا تخفى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون.

وبدايةُ أن ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة في العصر الحديث، ولكنه فرق يحسب للأقدمين، ويشهد باجتهادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر، حيث لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع الميسر لطالبيه، ولو أننا جعلنا ودائع مقياسًا للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدئ في عصرنا أضخم من أوراق نوابغ المثقفين في صدر الإسلام، ولكنهم كانوا بهذا المحصول القليل يعملون ما يعجز نوابغنا وأبطالنا، ويتكلمون في المعضلات، فإذا بالكلمة الوجيزة فصل الخطاب.

ونخال أن الاختلاف بيننا وبينهم في ثقافتنا وثقافتهم يتلخص في فرق واحد يحصر جميع الفروق: وذاك أن الكلمة قد رخصت في زمن المطبعة إباحة الكلام أو ابتذاله لمن لا يحسنه في قول ولا استماع.

كانت الكلمة تسمع وتحفظ، وتنقل من سلف إلى خلف، وتندمج في تجربة كل سامع، كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت.

كانت بضعة من حياة.

كانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد، ولو أنها صينت هذه الصيانة لأول مرة في عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديسهم

للكلمة التي يعلمون أنها مقدسة، ويصونونها إيمانًا بالفريضة الإلهية، وما في ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين، ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصور التنزيل، وتعودوا الحرص على ذخيرتها الإنسانية قبل أن يتعودوا الحرص عليها وهي ذخيرة سماوية يدخرونها لحياة أبقى من حياة الدنيا، وهي حياة الخلود.

إليك مثلاً علمهم الذين كانوا يسمونه علم الأنساب: ما مبلغة من العلم بالقياس إلى العلم الذي يقابله في زماننا وهو علم التاريخ؟

أين ذلك مما يستوعبه اليوم من النقد والتحليل، والشرح والتفصيل، والتفريع والتأصيل؟

لكن علم الأنساب هنالك وشائج أعراق وأحساب وعروق في الأبدان والأنفس لا يدفنها التراب.

إذا عرف أحدهم نسبًا، فقد عرفه ليهتز بفخره، أو يهتاج بعداوته، أو يقرنه بفعال صاحبه ويشهدها في ذريته وخلفائه.

وإذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذي أمامه، يساجله المودة أو البغضاء، ويذكر ما كان له ولآبائه من عزة ومضاء، أو ذلة واستخذاء، ويضيف إلى كل نسب رواية عن ملحمة، أو طرفة من حكمة، أو ملحة من فكاهة، ولا يجد بينها وبين أبناء نهاره فاصلاً بين قديم وجديد، أو بين مدثور مهجور، وحاضر مسموع ومذكور.

قل مثل ذلك في أمثال العرب وشواهدها ومعارض الاستشهاد بها في مواضعها. وقل مثل ذلك في أشعارها ومدائحها وأهاجيها وبلاغتها ومحاسن ألفاظها ومغازيها.

كل ممدوح كائن حي من مجد ومنعة وجود ومطاولة بالغلبة والعطاء، وكل مادح كائن حي، بما استجاشه من طمع، وما استقبله من أمل، وما خلفه وراءه من عطف وحنين، وما أثار في كلامه من تنافس وتناظر، أو من سوابق بين عشائرهم تذكر وتستعاد، وتعود معها محاسن آباء وأجداد، ومساوئ أضغان وأحقاد.

فإذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلامًا في الورق فهي بضع صفات مختزلات إلى متكلم من وراتهم وبلغائهم وثقافتهم، فلا جرم كانوا يفاخرون أمم العالم بأنهم يتكلمون.

وكان عثمان على علم بمعارف العرب في الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام. وساح في الأرض فرحل إلى الشام والحبشة، وعاشر أقوامًا غير العرب، فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربي في بلاده، وجدد في رحلاته تجديد الخبرة والعمل معارف البادية عن الأنواء والرياح ومطالع النجوم ومقارناتها في منازل السماء، وهي معارف القوافل والأدلاء، من أبناء الصحراء العربية، وأبناء كل صحراء.

وأسلم فكان من أفقه المسلمين في أحكام الدين، وأحفظهم للقرآن والسنة، روى عن النبي عليه السلام قرابة مائة وخمسين حديثًا وقال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة: "كان أعلمهم بالمناسك عثمان، وبعده ابن عمر".

وكان أقرب الصحابة إلى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين، فكان من سفراء الإسلام في غير موقف من مواقف الخلاف

أو الوفاق، تارة بين المسلمين وأعدائهم، وتارة بينهم وبين الأسرى منهم في أرض الأعداء.

وكان كاتبًا يجيد الكتابة، فاعتمد عليه النبي عليه السلام في تدوين الوحي، واعتمد عليه الصديق في كتابه الوثائق الهامة، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق.

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحة في البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوي الكمال من الرجال. قال عبد الرحمن بن حاطب: "ما رأيت أحدًا من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-كان إذا حدَّث أتمَّ حديثًا ولا أحسنَ من عثمان بن عفان، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث".

ولم يكن حديثه لغوًا ولا ثرثرة يزجى بها الفراغ بين أهل الفراغ، بل كان من تلك الأحاديث التي كان يتوق إليها النبي عليه السلام في بعض أوقاته فيتمنها، وتروي السيدة عائشة من ذلك أنها سمعت النبي ذات ليلة يقول: لو كان معنا من يحدثنا؟ قالت: يارسول الله أفأبعث إلى أبي بكر؟ فسكت. ثم قالت: أفأبعث إلى عمر؟ فسكت؟ ثم دعا وصيفًا بين يديه فسارّه فذهب فإذا عثمان يستأذن، فأذن له فدخل فناجاه عليه السلام طويلاً.

وينقل عنه الرواه كثيرًا من شواهد الأمثال والأشعار، وكأنه كان ينظم الشعر إن صح ما قيل أنهم وجدوا في خزانته وصية مكتوبًا على ظهرها:

غنى النفس يغني الـنفس حتـى يجلهـا وإن غصها حتى يضر بها الفقر

وما عسرةٌ فاصبر لها إن لقيتها بكائنة إلا سيتبعها يسر
ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى وفي غير الأيام ما وعد الدهرُ

ولكن هذا الشعر وغيره مشكوك في نسبته إليه.

إلا أنه كتب في خلافته رسائل من النمط الذي لا يرتضي الظن نسبته إلى كاتبه مروان.

ومن هذه الرسائل كتاب إلى عماله يقول فيه:

"استعينوا على الناس وكلِّ ما ينوبكم بالصبر والصلاة، وأمر الله أقيموه ولا تداهنوا فيه، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك، وارتضوا من الشر بأيسره، فإن قليل الشر كثير، واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها عن بعض. سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلَّا تكون لهم على الله حجة".

ومنها كتاب إلى العمال يقول فيه: "إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته، وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ وهو مفرقها على معصيته، ولا تعجلوا على أحد بحد قبل استيجابه فإن الله تعالى قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾.. ومن كفر دنويناه بدوائه، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله".

ومن كتبه إلى العمال:

"أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذي لهم وتأخذوا بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوا بالذي عليهم. ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء".

ومن كتبه إلى الجباة:

"أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق. خذوا الحق وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم".

وكتب إلى أمراء الأجناد: "أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا. لا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم. فانظروا كيف تكونوا، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه".

وبعض هذه الكتب يبدؤه ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى في بيان ما يدعوهم إليه وينهاهم عنه، وليست هي مما يكتبه مروان، لأنه لم يكن يحفظ القرآن حفظ عثمان، وليس ما تقدم من الوصايا بالذي يكتبه مروان غير مملي عليه. لأنها هي الوصايا التي هي أخرى بحياء عثمان وألفته ووفائه ورحمته لليتيم وإيثاره الموادعة وكراهته اللجاجة في

القصاص. لهذا نقول أنها من أسلوبه الذي يوائمه رضي الله عنه، وأسلوبه ثمة هو ترجمان نفسه، فإن الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحس أنه مقنعة لو كتب إليه. وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا محاولة ولا إطناب، إلا الدعوة القويمة في استقامة وسهولة وبساطة، لا تقدر في الناس أنهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور، وكذلك كان عثمان يعقل ما يطيعه وما يطاع، وكذلك استجاب لدعوة أبي بكر حين دعاه إلى الإسلام حتى قال لصاحبه: نعم، هو ذاك.

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة القويمة، وربما أرتج عليه فلا يبتئس لذلك ولا يزيد على أن يقول ما معناه: سيأتي القول حين الحاجة إلى القول.

ومن خطبة في أوائل الفتنة: "إن الناس يبلغني عنهم هنات وهنات، وإني والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها. ألا وإني زام نفسي بزمام، وملجمها بلجام، ومناولكم طرف الحبل، فمن اتبعني حملته على الأمر الذي يعرف؛ ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه وعزاءٌ عنه. ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقًا وشاهدًا: سائقٌ يسوقها على أمر الله، وشاهدٌ يشهد عليها بعملها. فمن كان يريد الله بشيء فلييسر، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسر".

ومن خطبة بعد تفاقم الفتنة خطبة على الروية لم تكن مرتجلة قال فيها: "...آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النعمة، عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون، ويسترون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون. أمثال

النعام يتبعون أول ناعق، أحب مواردهم إليهم البعيد، لا يشربون إلا نغصًا، ولا يردون إلا عكرًا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور.

"ألا فقد والله عبتم على ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فسلمتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنت لكم، وأوطأتكم كنفي، وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم علي. أما والله لأنا أعز نقرًا وأقرب ناصرًا وأكثر عددا وأحرى إن قلت: هلم أتي إلي. ولقد أعددت لكم أقرانًا، وأفضلت عليكم فضولا، وكشرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خلقًا لم أكن أحسنه، ومنطقًا لم أنطق به، فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم، فإني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم رضيتم مني بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي، ولم تكونوا تختلفون عليه".

وهذه الخطبة هي التي قام مروان بعدها يهم بالكلام ويتكلم متوعدًا فأسكنه عثمان، وترى أنها قيلت على الروية، لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وتحفزها، ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو ينوي الخطابة فيها.

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد في هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها، ولكنها تورد قبل كل شيء لأنها – مع ما تبديه من بيانه–تبدي لنا أسلوب الخليفة الثالث في علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة. فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم "الأسلوب الرسمي" أو أسلوب

التشريع والوثائق القانونية: تبليغ وتقرير بغير تنميق ولا محاولة تأثير، وهو كذلك أسلوب الخلافة التي تعلم أن التفاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستغن عن الإقناع وعن المسحة الشخصية التي يصطبغ بها الكلام إذا وقع الاختلاف في النظر بين السامع والمتكلم، ثم يستطرد الموقف بالخليفة إلى ما رأيناه في خطابه الأخير، وأول ما يبدو منه أن الراعي والرعية لا يثوبون إلى قسطاس واحد، وتلك بوادر الملك تظهر في مضامين القول كما ظهرت على ما نراه في الأعمال والنيات.

obeikandl.com